الباب الثالث

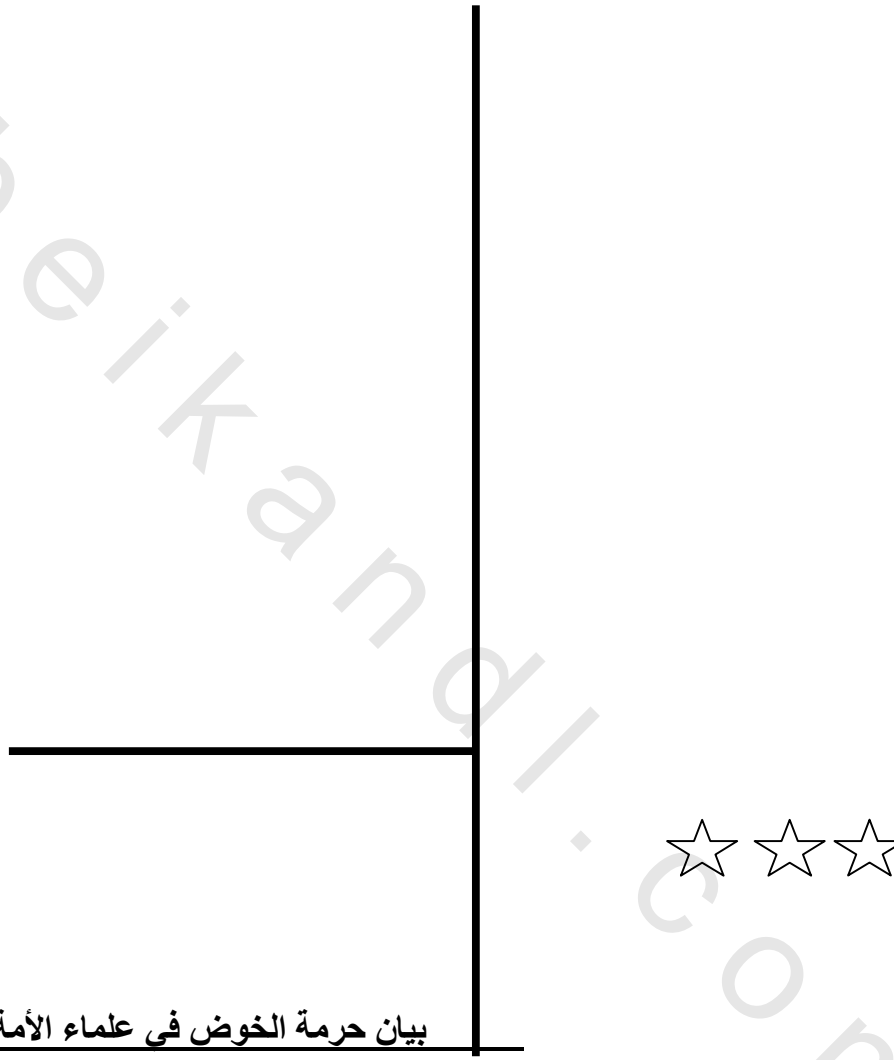

☆☆☆

بيان حرمة الخوض في علماء الأمة:

obeikandl.com

obeikandl.com

إن العلماء وعلو مكانتهم، وما خصهم الله جل وعلا به من إرث نبيهم صاروا محل كلام الناس، لا بنقل أقوالهم، ولا بسماع توصياتهم، ولكن بالوقوع في أعراضهم، يلوكونها ويتسلطون عليهم بكلام لا حق فيه، إنما هو محض الباطل والهوى، وينقلون ما يقول الناس، ويقول الدهماء، ويقول الغوغاء لذا لم نر فوضى ولا بلاءً أعظم مما نزل بالمسلمين في مجتمعاتهم في هذه الأوقات، تركوا أهل العلم الراسخين، الذابين عن الملة، الداعين إلى الكتاب والسنة، لأقوال أهل الهوى، أو لناعق في منبر إعلامي، أو قناة أو مجلة أو غيرها، يتكلم بالهوى، ويتكلم بما لا يعرف، ويهذي بما لا يعقل، والناس له تابعون، وعن كتاب الله وسُنته والناطقين بها منصرفون.

إن الوقيعة في أهل العلم مع ما فيها من الحرمة العظيمة؛ لرفيع درجتهم كما قال بعض السلف: لحوم العلماء مسمومة وعادة الله في هتك منتقصيهم معلومة، ومن رامهم بالثلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب إن الكلام في العلماء كلام في مؤمن، والله جل وعلا حفظ للمؤمنين أعراضهم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: إنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا اللّهُمّ هَلْ بَلّغْتُ، اللّهُمّ فَاشْهَدْ وشهد الله جل وعلا بحفظ أعراض أهل الأيمان، والعلماء هم صفوة أهل الإيمان، وهم المتسلمون

للوائهم، والحافظون لهم، والمنادون إلى سبيلهم والوقيعة فيها من الوعيد، الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور: وَهَلْ يَكُبُّ النّاسَ فِي النّار عَلَى وُجُوهِهِمْ أوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النّار إلاّ حَصَائِدُ ألْسِنَتِهِمْ وفي الوقيعة في العلماء إيذاءٌ للنبي صلى الله عليه وسلم .

فأول شيء يُحرَم الناس منه بالوقيعة في العلماء هو: ذهاب العلم، فإذا تكلم الناس في العلماء، فمِن أين يصدرون؟ ومَن سيستفتون؟ وبمن يثقون؟ وعمن يأخذون؟ لذلك قال أبو سنان الأسدي: إذا كان طالب العلم قبل أن يتفقّه المسألة في الدين يتعلم الوقيعة في الناس متى يفلح؟ ومتى يفلح الناس، وهم يخوضون في علمائهم وأولي الأمر منهم، الذين يدعون إلى كتاب الله، وإلى سُنة رسوله صلى الله عليه وسلم بالوقيعة والنقص والذم، وإبداء الخلات والعيب .

والوقيعة في أهل العلم سبب لهلاك الإنسان في آخرته، لذا يقول ابن المبارك :من تكلم في الأمراء ذهبت دنياه، ومن تكلم في العلماء ذهبت آخرته، ومن تكلم في الإخوان ذهبت مروءته وبالحديث عن العلماء يتعرّض الإنسان لوعيد شديد، وبلاء كبير؛ فإنه يبارز الله جل وعلا بالعداوة ففي الحديث الصحيح، الذي رواه البخاري في صحيحه، أن النبي صلى الله عليه سلم قال: قالَ اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًا فَقَدْ آذَنْتُهُ

بالْحَرْبِ والولاية لا شك لأهل العلم أصالة، ويتبعهم الناس، بما عندهم من كتاب الله، وسُنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

إن الحديث عن أهل العلم، والوقيعة فيهم، سبب لترك ما عندهم من الخير، والكتاب، والسنة وتأمل ما جاء في الحديث الصحيح، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لاَ تَسُبُّوا الدِّيكَ؛ فَإِنَّهُ يُوقِظُ للصلاةِ فكيف بأقوام يستبيحون أعراض أهل العلم، الذين يدعون إلى توحيد الله، وإلى كتاب الله، وإلى سنة رسول الله، وإلى الصلاة، وإلى الزكاة، وإلى الصيام، وإلى الحج، وإلى أصغر فروع هذا الدين وأكبره، وقليله وكثيره أليسوا ممن يقعون في أمر عظيم قال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ) فهذا هو شأن أهل العلم والمتكلم فيهم متكلم بأمر عظيم.

والقدح في أهل العلم سبب لهلاك المجتمع برمته، وسبب لفساد الديار والعباد لذلك يقول الإمام السخاوي : إنما الناس بشيوخهم، فإذا ذهب الشيوخ فمع من يكون العيش؟ نعم، فتأملوا إلى أقل أموركم وأكثرها، وصغيرها وكبيرها، فيما تتعبدون به لربكم، وفيما تتعاملون فيه من بيعكم وشرائكم، وأعمالكم ووظائفكم، وتتعاملون فيه مع أهليكم وأزواجكم، وأبنائكم وبناتكم، أليس كل ذلك إنما تأخذونه من كتاب الله،

وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والذي يبصركم في ذلكم هم أهل العلم، فإذا تُكلِّم فيهم فأسقِطوا، فممّن يتعلم الناس ذلك كله؟.

ولذا تبين بيانًا كاملاً، لا مرية فيه، تبينًا يقينيًا أن المتكلم في أهل العلم متكلم في كتاب الله جل وعلا وسُنة رسوله صلى الله عليه وسلم ودليل ذلك ما جاء في الحديث المعروف المشهور، لمّا تكلم المنافقون، فقالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء؛ أرغب بطونًا، ولا أجبن عند اللقاء يعنون رسول الله صلى والله عليه وسلم وأصحابه، فماذا قال الله جل وعلا في ذلك؟ أنزل قوله سبحانه وتعالى:(قُلْ أبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُون * لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) .

فهل استهزأوا بآيات الله؟ لا، ولكن لما كانت الوقيعة في رسول الله وفي أصحابه مستلزم لا محالة الوقيعة في آيات الله جل وعلا جعل الله ذلك استهزاءً بآيات الله، وبكتابه وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فبيّن الله ذلك في هاتين الآيتين: (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنّ إِنّمَا كُنّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) ألا يكفي أن الوقيعة في العلماء هي طريقة المنافقين، الذين يبطنون خلاف ما يظهرون، الذين يريدون الفساد بالمجتمع، الذين يتربصون بالأمة الدوائر، الذين يريدون بها البلاء، الذين يظهرون الإصلاح ويبطنون الإفساد ألا يكفي ذلك وازعاً لنا، ومانعاً ورادعاً أن

نتكلم في أهل العلم، أو نقع فيهم، أو أن يصلهم منا ما يسوءهم، أو ما ينقص قدرهم، ويذهب مكانتهم فما ترونه من تتابع أهل البلاء، وأهل الفساد، من أصحاب الأقلام العفنة، والمنابر السيئة، من الوقيعة في العلماء، ما هو إلا لتعلموا علماً يقينيًا أن أولئك ما أرادوا الإصلاح، ولم يريدوا الخير،ولا الفلاح لهذه الأمة،إنما أرادوا أن يفرقوا بين المجتمعات وعلمائها، وأرادوا أن يفصلوا بين الأمة وبين كِتابها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم بفصلهم عن علمائهم، فلا يزالون يحاولون الوقيعة في المجالس والمنتديات والمحافل مرة بعد مرة، في قناة أو في أخرى.

أثر الخوض في العلماء:

لذا رأينا أثر ذلك جليًا، فما انتشر الفساد، ولا البلاء، ولا كثرت المنكرات،ولا اتسع الناس في الشهوات المحرمة إلا ببعدهم عن علمائهم، ولا انتشرت الشبهات ولا التساهل في الدماء، ولا الوقوع في أمن المجتمعات، ولا التسلط على كثير مما يكون سبباً للفساد في البلاد والعباد إلا بسبب ترك العلماء، والصدور عمن لا يستحق أن يصدر عنه، ممن تسلم لواءاً ليس له بقائد، وليس له بمستحق.

عند ذلك كله نعلم عظم هذه الكلمة، التي ربما لم تتجاوز أحرفًا قليلة، يتكلم الإنسان فيها، في عرض أحدٍ من أهل العلم، بدون حجة ولا برهان،

يكون سببًا لنقل الفساد، وحصول البلاء في الأمة بين المجتمع، ولتهوين شأن أهل العلم عند الناس ولئن كان للناس آذانًا صاغية لمثل هؤلاء الذين ينعقون بالكلام في أهل العلم فإن بلاءاً كثيرًا سيصيب هذه الأمة، وإن شرًا عظيماً سيحدث فى المجتمع المسلم؛ لأن بقاء أهل العلم وحفظ قدرهم هو بقاء للدين، وبقاء للكتاب والسنة.

وتأمل حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي رواه مسلم في صحيحه: إنّ اللهَ لا يَقْبضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبضُ الْعِلْمَ بقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتّى إذَا لَمْ يُبْقَ عَالِمًا اتّخَذَ النّاسُ رُءُوسًا جُهّالاً، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا فمن يتكلم في أهل العلم يريد للأمة أن تصل إلى هذه الدرجة؛ أن يتخلى الناس عن علمائها الربانيين، الذين ينطقون دون هوى، أو جهل، إنما بمحض فهمهم لكتاب الله جل وعلا وسُنة رسوله صلى الله عليه سلم.

إنهم يريدون الصد عن هؤلاء؛ ليذهب إلى أهل الأهواء، ولا تسأل عن بلاء الناس عند ذلك الحد، فإنه سوف يكون بلاء عريض، وشر كبير ألا يفضي تَرْك العلماء إلى أن يؤخذ العلم ممن ليس له بأهل، فيأتي مَن يفتي الناس حسب رغباتهم، وحسب شهواتهم، ومن يفتي الناس حسب ما يستقر في صدره من بغض لهذا، ومن إرادة سوء لذلك المجتمع، أو

البلد، أو بما يكون سببًا لاستحسان السائل، وعند ذلك يترك دين الله جل وعلا وتتبع الأهواء، ويتبع الهوى والشيطان، فيحدث بلاء كبير.

لذا كان لزامًا علينا أن نعلم أن أعظم شيء يكون المرء حريصًا عليه هو أن يحفظ لسانه عن الوقيعة في كل أمر محرم؛ من غيبة، أو نميمة، أو سباب، أو شتم وإن من أعظم القول المحرم الوقيعة في أهل العلم،وفي أهل الفضل، وأهل الديانة، الذين بهم يحفظ الكتاب، والسُنة، وبهم يكون نقل قول الله جل وعلا وقول رسوله صلى الله عليه وسلم.

شبهات من يسبِّ العلماء:

وما يدعيه بعض الناس عند التطاول على أهل العلم، أنه بغرض النصح، فغير صحيح؛ فباب النصح معروف في الشريعة، فليس باب النصح أن تُلاك لحوم أهل العلم في مجالس من ليس لهم علاقة بالعلماء، أو في لحوم أهل العلم، ويتكلم في أعراضهم بالثلب والنقيصة والهوى والظن ، بدون علم، ولا برهان، ولا حجة، ولا بيان أما ما يكون من بيان الخطأ، من تبيين ما يجري من هفوة أو ذلة، فإن أهل العلم لا يُعتَبون على ذلك، وما من أحد من أهل العلم إلا ويُرَدُّ عليه، ولكن بطريقة أهل العلم، وبالنصح والتوجيه، وبالدليل من كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

لذلك لما تكلم يوسف بن أسباط في الحسن بن صالح، وكان وقع في زلة؛ وهي أنه كان يرى السيف على الولاة، فقال له بعض الحاضرين: يا إمام، ألا ترى أنك اغتبته؟ قال:ويحك، نحن أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم، إنما نحذر الناس أن يقعوا في خطئهم فما كان من تحذير من الخطأ، والوقوع في الزلل، فتلكم سُنة ماضية عند أهل العلم، على طريقة رصينة، ومنهج متين، وهو خلاف ما يكون من الوقيعة في أهل العلم.

العلم والعلماء نعمة من الله:

لا شك أن العلم نعمة من الله على عباده، وفي الحديث: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بهِ خَيْرًا يُفقِّهْهُ فِي الدِّين فمَن أراد الله به السعادة في الدنيا والآخرة فقّهه في دينه، ورزقه بصيرة فيه، عَلِم بها الحلال من الحرام، والحقّ من الباطل، والهدى من الضلال وهؤلاء العلماء رفع الله منزلتهم، كما قال تعالى: (يَرْفَعِ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالّذِينَ أوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ) وهم أهل خشية الله على الحقيقة إن هم صدقوا في علمهم، قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ) والعلماء هم ورثة الأنبياء، فالأنبياء لم يُخلِّفوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما خَلّفوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر.

وقد أقام الله العلماء في هذه الأمة مقام الأنبياء في بني إسرائيل، كانوا إذا مضى فيهم نبي أعقبه نبي آخر، فلما انقطعت النبوة بمبعث

محمد صلى الله عليه وسلم جعل الله علماء هذه الأمة يقومون مقام الأنبياء في بني إسرائيل، فهم القدوة في الحلال والحرام والأسوة ، ويبينون وجوب إفراد العبادة لله، ويبينون حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم وحقيقة الإيمان به، واتباع سنته، والعمل بشريعته.

هؤلاء العلماء أنعم الله عليهم بالعلم، فلما حمّلهم العلم أوجب عليهم تبليغه لغيرهم، قال الله تعالى محذرًا من كتمان العلم: (إِنّ الّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيّنّاهُ لِلنّاسِ فِي الكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُونَ * إلاّ الّذينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيّنُوا) وقال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيّنُنّهُ لِلنّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) وقال: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذّلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الّذِينَ كَذّبُوا بِآيَاتِنَا) فهو ذم لمن حمل العلم ثم ناقضه وقال جل وعلا : (مَثَلُ الّذِينَ حُمّلُوا التّوْرَاةَ ثُمّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الّذِينَ كَذّبُوا بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمِينَ) وصاحب العلم هو أحد الثلاثة الذين تُسعّر عليهم النار يوم القيامة، إذا سئل، فقال:

يا رب، قرأت فيك القرآن، وتعلمت فيك العلم فيقول: كذبت، ولكن ليقال قارئ، ليقال عالم، فقد قيل.

فلابد من الإخلاصِ لله في العلم، وكون هذا العلم سببًا للخشية والإنابة والورع؛ ليقتدي به الناس، ويتأسوا بأقواله وأفعاله أما الطعن في العلماء، فالأصل أن الطعن في عموم المسلمين لا يجوز، قال تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) وقال: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وقال تعالى: (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا).

العالم المجتهد المخطئ يعذر:

فلا يحل لأحد أن يقدح في طالب العلم العامل بعلمه، المستقيم عليه، لم يظهر منه مخالفة، ولا انعكاس للعلم، وإنما هو على الطريق المستقيم، والمنهج الواضح القويم، وسبه نقص في حق الإنسان، ودليل على ضعف الإيمان وليس طالب العلم معصومًا، فما منا إلا رادّ ومردود عليه، إلا محمدًا صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى وإذا أخطأ العالم بحث أخوه عن عذر له يعتذر به، واتصل به، فلعل

ما نقل عنه غير صحيح، ولعله محرف، أو مزيد، أو منقوص فيه وهب أن العالم أخطأ، فهل أحدٌ معصوم من الخطأ.

إن المصيبة هي الإصرار على الخطأ بعد العلم به، وأما مجرد الخطأ فكلنا خُطّاءون، وخير الخطاءين التوابون كم من أناس تعمر مجالسهم بالقدح في الناس، والنيل من أعراضهم، بلا حجة، ولا برهان، ولا يدرون أنهم يقدمون لهم حسناتهم، ويتحملون الأوزار والآثام فالحديث يقول: مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ أَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، أَوْ مَالِهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ حِينَ لاَ يَكُونُ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، وَإِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَجُعِلَتْ عَلَيْهِ.

أزمة الأمة مزمنة

إننا لا نعيش في أزمة ، ولا في قلق وفتنة ، في هذه الأيام فحسب ، بل نعيشها منذ قرون ، أزمة وفتنة وبلاء عظيم بدءاً من أواخر الخلافة العثمانية ، مروراً بسقوطها وتقسيم بلاد الإسلام إلى دويلات ، والاستعباد الصليبي لها ، الذي استمر إلى يومنا هذا ، حتى غدونا جميعاً أمة الإسلام كالأيتام على موائد اللئام ، وصرنا كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية و ليست الأزمة اليوم ، أن تطالب الأمة بالعدل ورفع الظلم عنها ،

وإنما الأزمة حقيقة في الإصرار على عدم تحقيق هذه المطالب ، والسعي في منعها ، وقمع المطالبين بها .

النصيحة ليست فتنة

ليس في إنكار منكرات الأنظمة والسياسات ، فتنة ولا خروج عن الطاعة ، فإن الدين النصيحة، كما في الحديث ، وذكر فيه : أئمة المسلمين وجهاد الأئمة المخالفين واجب ، كما في حديث فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل والأحاديث والوقائع المتواترة في مشروعية النصيحة والإنكار ، أكثر من أن تحصر .

خطب أبو بكر رضي الله عنه خطبة البيعة فقال: (إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أخطأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم)والفتنة العظمى هي في سن القوانين والسياسات المخالفة للحق ، الظالمة للخلق ، لا في إنكار المنكرات ، فرادى وجماعات .

obeikandl.com

والفتنة أكبر من القتل والخروج الأعظم ، هو الخروج عن الشرع والعدل ، إلى الظلم والجور وإذا كان الاحتساب على الحكام ، يعد خروجاً ، أو حرابةً ، فإن أول الخارجين المحاربين هم الصحابة .

الترهيب من إهانة العلماء أو هضم حقهم

إن إهانة العلماء، أو ازدرائهم، أو تنقصهم، أو الاستخفاف بهم أعظم جرماً، وأشد إثماً من إهانة وازدراء غيرهم، لأن إهانة العلماء ليست إهانة لذواتهم فحسب، بل تتعدى ذلك إلى إهانة ما يحملونه من العلم، وما يتمثلون به من الدين والخلق لهذا يخشى على من أهان أهل العلم من حلول العقوبة المعجلة به، لشناعة جرمه، وعظيم جنايته وهنا أسوق شيئًا من النصوص يتبين من خلالها مدى الخطورة التي تترتب على بخس العلماء حقهم، وفيها أيضاً بيان بعض صفات من استخف بالعلماء، وكونه على شفا جرف هار يوشك أن ينهار به إن لم يتب إلى الله من جرمه .

أولاً : أن من عادى العلماء معادٍ لله وقد آذنه الله بالحرب ، قال صلى الله عليه وسلم : إن الله قال : من عادي لي وليًّا فقد آذنته بالحرب.

قال ابن حجر: المراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته فلا يُحكم لإنسان آذى ولياً ثم لم يعاجل بمصيبة في نفسه، أو ماله، أو ولده،

بأنه سلم من انتقام الله له، فقد تكون مصيبته في غير ذلك مما هو أشد عليه كالمصيبة في الدين مثلاً .

ثانيًا : أن من أهان العلماء فقد عرّض نفسه لوعيد النبي صلى الله عليه وسلم ، المتمثل في قوله : ليس منا من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه .

ثالثًا : أن تنقصهم والاستهزاء بهم طريق إلى الكفر كما قال تعالى : قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66).

رابعًا : أن من اغتابهم أو رضي بغيبتهم فهو معرّض لموت القلب .

قال ابن عساكر: أنّ لحوم العلماء مسموعة، وعادة الله في هتك من ناوأهم معلومة، وقلّ من اشتغل في العلماء بالثلب إلا عوقب قبل موته بموت القلب فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وذكر الثعلبي في كتاب آداب الملوك عن علي رضى الله عنه أنه قال : من استخف بالعلماء ذهبت آخرته .

خامسًا : أن في إبعاد السلطان للعلماء فساد له ولدولته، فكيف بإهانتهم، أو عدم قمع وزجر من أهانهم !! .

قال صلى الله عليه وسلم : ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصمه الله» .

سادسًا : أن المجتمع الذي يهان فيه العلماء مجتمع متداع أوشك على التصدع والفوضى، كيف لا !! والعلماء نور للناس، بهم يقتدون ، وعن رأيهم يصدرون، فهم للناس كالشمس في النهار، وكالبدر في الليل .

سابعا : أن في تنقص العلماء والاستخفاف بحقهم قدح في معتقد منتقصهم قال الطحاوي ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل.

ثامنًا : إن في إهانة العلماء، وإسقاط حقهم وكرامتهم، تنفيذ مباشر لما يسعى له اليهود، فمن مخططاتهم الرهيبة ما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون : وقد عنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدين من الأمميين (غير اليهود) في أعين الناس، وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي كان يمكن أن تكون عقبة كئودًا في طريقنا، وإن نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يوماً فيوماً .

ولقد أدرك اليهود وأذنابهم مدى ثقة المسلمين بعلمائهم وترسخ تلك الثقة في سويداء قلوب المسلمين، فبدأوا حملة مسعورة مستترة استعملت كل أفانين الدعاية والإشاعة وأساليب علم النفس والاجتماع

لتشويه سمعة علماء الأمة حتى تكرههم الأمة وترفض الائتمار بأمرهم أو التأثر بعلمهم، وتكاتفت جهود الصليبية واليهودية ومن تبعها للإجهاز على سمعة علماء القرآن في قلوب أمة القرآن، ولم يأبه لهذه الحملة في البدء علماء الأمة ولاعامتها، لكنها على مر السنين آتت أكلها النجسة الهدامة، وأفاقت الأمة الإسلامية على جيل جديد له نظرة جديدة جيل آمن كما أراد أعداء الإسلام بأن العلماء قوم غير صالحين قوم رجعيون، جامدون، متخلفون، متعفنون .

فانظر كيف تم لليهود وأعوانهم ما أرادوا، ليس هذا فحسب بل ما زال في ديار المسلمين من أبناء المسلمين من يحذو هذا الحذو من التهكم بالعلماء، ورميهم بأقذع العبارات وأسقطها، مطبقًا بذلك ما سعت له يهود لعنها الله وإن ما يُرى ويسمع ويقرأ في وسائل الإعلام العالمية المختلفة فينة بعد أخرى لآكد دليل على قوة سهام تلك الحملة المسعورة على علماء المسلمين، وإليك بعض الأمثلة وهي غيض من فيض التي يتجلى فيها بوضوح الحط من كرامة العلماء وتمييع منزلتهم : فمن ذلك أنهم يقرنون لقب الشيخ بأسماء بعض الأعلام من المنحرفين والرقاصين والمخنثين، وذلك في إشاعة دعاياتهم وعروضهم الإعلامية كالشيخ سيد درويش والشيخ زكريا أحمد وأكابر المجرمين من الملحدين الشيخ

مجيب الرحمن الذي دأبت أذاعة لندن على ذكره مقرونًا بهذا اللقب لتعلّمه لسامعيها من المسلمين تعليماً مكرورًا لا يزال يذكره من يذكره .

وعندما نصّبت فرنسا الشيخ تاج الدين بن الشيخ بن بدر الدين الحسيني رئيساً لسوريا، قامت عصابة من المهرجين طافت في كل حواضر البلاد السورية آنذاك لتمثل هذا الهزل المؤلم الهادف : يركب مهرج عاهر على حمار بالمقلوب موجهاً ظهره لرأس الحمار ووجهه لذيله، ويضع المهرج عمامة على رأسه، ويمسك بذيل الحمار الذي يوضع على رأسه عمامة أيضً، ويتخلع المهرج بحركات بذيئة وهو يصيح : أنا الشيخ تاج عزوني .

وفي الفترة نفسها امتلأت جدران الحواضر السورية بمساخر كاريكاتورات تمثل حماراً كتب عليه الشيخ تاج وقد رسموا على رأس الحمار عمامة أيضاً أما في مصر فلقد أشاعوا في مجالات الإعلام السينما والتلفزيون والجريدة والمجلة صورة للأزهرية مضحكة وشرعية في نفس الوقت، فهو رجل يلبس ثوباً فضفاضاً، وجبّة، وعمامة ويمتاز ببساطة وسذاجة بل وغفلة، ويتشدق بالفصيح من الكلام بأسلوب متكلف، ويتقعر بفظاظة لينفّر الناس من العربية، ويضحك الناس على نفسه وعلى الفصيح من اللغة، وتتكرر الصورة في كل مجال إعلامي دعائي .

فهمان خاطئان لعبارة لحوم العلماء مسمومة

العبارة الشهيرة : لحوم العلماء مسمومة ذكرها ابن عساكر في كتابه تبيين كذب المفتري(ص29) وفهم منها البعضُ فهمين خاطئين دعاهم إلى السخرية منها ، وعدم قبولها :

الفهم الأول : أن العلماء معصومون من الخطأ ، لايُستدرك عليهم وهذا ما لم يفهمه عاقل يعي أن العلماء بشر كغيرهم ، وإن فُضّلوا بحمل ميراث الأنبياء عليهم السلام ولكن يكون الاستدراك عليهم بعلم وأدب .

الفهم الثاني : أن هذا يدعو إلى التهوين من غيبة غير العلماء وهذا أيضاً خطأ على قائل العبارة أو من يستشهد بها ولتوضيح المقصد الصحيح من هذه العبارة ، وأنها لا تعني الفهمين السابقين ؛وننقل كلمات متفرقة من شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين قال في شرح حديث يا عبادي إني حرمتُ الظلم : إن غيبة العلماء تُقلل من شأن العلم الذي في صدورهم ، والذي يعلمونه الناس ، فلا يَقبل الناس ما يأتون به من العلم ، وهذا ضرر على الدين) .

وقال : الكلام في أهل العلم جرح في العلماء وجرح فيما يحملونه من الشريعة، لأن الناس لن يثقوا بهم إذا كثر القول فيهم والخوض فيهم، لهذا يجب عند كثرة الكلام وخوض الناس في أمر من الأمور أن يحرص

الإنسان على كف لسانه، وعدم الكلام إلا فيما كانت مصلحته ظاهرة، حتى لو سئل يقول: نسأل الله الهداية .

وتعليقًا على باب : توقير العلماء والكبار وأهل الفضل قال : (يريد المؤلف رحمه الله بالعلماء : علماء الشريعة الذين هم ورثة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإن العلماء ورثة الأنبياء وإذا كان الأنبياء لهم حق التبجيل والتعظيم والتكريم ، فلمن ورثهم نصيب من ذلك ، أن يُبجل ويُعظم ويُكرم وبتوقير العلماء توقر الشريعة ؛ لأنهم حاملوها ، وبإهانة العلماء تهان الشريعة ؛ لأن العلماء إذا ذلوا وسقطوا أمام أعين الناس ذلت الشريعة التي يحملونها ، ولم يبق لها قيمة عند الناس ، وصار كل إنسان يحتقرهم ويزدريهم ؛ فتضيع الشريعة ولما بقي عالمٌ، ولصار كل يتكلم بما شاء، ويفتي بما شاء، ولتمزقت الشريعة بسبب هذا الذي يحدث من بعض السفهاء) .

وقال : (ثم قال صلى الله عليه وسلم يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر والشاهد هذه الكلمة وهي أن الأنبياء يُؤذون ويصبرون، فهذا نبينا صلى الله عليه وسلم قيل له هذا الكلام بعد ثماني سنين من هجرته يعني ليس في أول الدعوة بل بعدما مكّن الله له وبعدما عُرف صدقه وبعدما أظهر الله آيات الرسول في الآفاق وفي أنفسهم، مع ذلك يقال هذه القسمة لم يعدل فيها ولم يُرد بها وجه الله.

فإذا كان هذا قول رجل في صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام للنبي صلى الله عليه وسلم فلا تستغرب أن يقول الناس في عالم من العلماء إن هذا العالم فيه كذا وكذا ويصفونه بالعيوب، لأن الشيطان هو الذي يدفع هؤلاء على أن يقدحوا في العلماء.

لأنهم إذا قدحوا في العلماء وسقطت أقوالهم عند الناس ما بقي للناس أحدٌ يقودهم بكتاب الله بل تقودهم الشياطين وحزب الشيطان ، ولذلك كانت غيبة العلماء أعظم بكثير من غيبة غير العلماء، لأن غيبة غير العلماء غيبة شخصية إن ضرَّت فإنها لا تضر إلا الذي اغتاب والذي قيلت فيه الغيبة، لكن غيبة العلماء تضرُّ الإسلام كلَّه ؛ لأن العلماء حملة لواء الإسلام فإذا سقطت الثقة بأقوالهم، سقط لواءُ الإسلام، وصار في هذا ضرر على الأمة الإسلامية فإذا كانت لحوم الناس بالغيبة لحوم ميتة فإن لحوم العلماء لحوم ميتة مسمومة لما فيها من ضرر عظيم فلا تستغرب إذا سمعت أحداً يسبُّ العلماء! فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل فيه ما قيل، فاصبر، واحتسب الأجر من الله عز وجل واعلم أن العاقبة للتقوى) .

أمثلة على ما يصيب العلماء من الابتلاء

إن إمام العلماء وقدوتهم نبي الله صلى الله عليه وسلم لم يسلم من ذلك بل ناله أكثر مما نالهم وسينالهم، قالوا ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون

، وقذفوا أهله وكسروا رباعيته وشجوا وجهه، وأخرجوه من بلده، وناصبوه العداوة والبغضاء، ومع ذلك يثبته ربه بقوله : مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ وهكذا صحابته رضى الله عنهم ، نالهم ما نالهم من الأذى، وهكذا ما زال موكب العلماء ذلك الركب الطاهر من لدن أنبياء الله تعالى إلى ساعتنا هذه، وإلى قيام الساعة تعترض مسيرته عقبات وعقبات، ولكن ثم ماذا ؟ أين أعداء العلماء ؟ أين المعارضون لأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ؟ أين خصوم شيخ الإسلام ؟ بل أين خصوم جميع العلماء ؟ لقد مات ذكرهم بموتهم، وبقي هؤلاء بعلمهم بقاء الجبل الأشم، مرفوع الرأس ناتئ الصدر ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

ونسوق هنا سبعة أمثلة، أما المثالان الأول والثاني فيتعلقان بعالمين أحدهما اسمه عبد الرحمن، والثاني اسمه بركات فأما عبد الرحمن فقد ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء أنه كان أحد المفتين، ضربه التتار، وصبوا عليه في الشتاء ماءً باردًا فتشنج ومات وأما بركات فقد ذكر ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب أنه توفي بسبب أنه خرج من بيته لصلاة الصبح بالجامع الأموي فلقيه اثنان وأخذا عمامته عن رأسه وضربه أحدهما على صدره، فانقطع مدة، ثم أراد الخروج إلى الجامع فما استطاع فتوضأ وصلى الصبح والضحى، وتوفي بعد صلاة الضحى،

ودفن بمقبرة باب الصغير أما المثال الثالث ففيه بيان بعض عقوبة من وشى بالعلماء ونكّل بهم ، جاء في كتاب الفرق بين الفرق ما نصه :

ذكر صاحب تاريخ المراوزة أن ثمامة بن أشرس سعى إلى الواثق بأحمد بن نصر المروزي، وذكر له أنه يكفر من ينكر رؤية الله تعالى، ومن يقول بخلق القرآن، فاعتصم المعتصم ببدعة القدرية فقتله، ثم ندم على قتله، وعاتب ثمامة، وابن أبي دؤاد وابن الزيات في ذلك، وكانوا أشاروا عليه بقتله، فقال له ابن الزيات : إن لم يكن قتله صوابًا فقتلني الله تعالى بين الماء والنار وقال ابن أبي دؤاد : حبسني الله في جلدي ان لم يكن قتله صواباً ، وقال ثمامة : سلّط الله تعالى عليَّ السيوف إن لم تكن أنت مصيباً في قتله ، فاستجاب الله تعالى دعاء كل واحد منهم في نفسه : أما ابن الزيات فإنه دخل في الحمام وسقط في أتونه فمات بين الماء والنار، وأما ابن أبي دؤاد فإن المتوكل رحمه الله حبسه فأصابه في حبسه الشلل، فبقي في جلده محبوساً بالشلل إلى أن مات، وأما ثمامة فإنه خرج إلى مكة فرآه الخزاعيون بين الصفا والمروة، فنادى رجل منهم فقال : يا آل خزاعة، هذا الذي سعى بصاحبكم أحمد بن نصر، وسعى في دمه، فاجتمع عليه بنو خزاعة بسيوفهم حتى قتلوه، ثم أخرجوا جيفته من الحرم فأكلته السباع خارجاً من الحرم، فكان كما قال الله تعالى : فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا .

تغييب دور العلماء:

بقدر أهمية العلماء الربانيين وحاجة الأمة إليهم يتبين خطر غياب دورهم أو تغييبه، فالثغرة التي هم عليها لا يسدُّها غيرهم، ومن أجل تجنّب ذلك نؤكد على أمور مهمة، هي:

- أنه يجب على العلماء أن يتقدموا لسدِّ الثغرة، وأن يتولُّوا زمام المبادرة بأنفسهم، وأن يكونوا قريبين من الناس قبل الفتن وفي أثنائها، وأن لا ينتظروا أن تأتيهم الفرص وهم قاعدون فإنهم متى تأخروا تقدم غيرهم ممن ليس أهلاً لسدِّ مكانهم، ولا بدَّ للناس من قادةٍ يرشدونهم ويوجِّهونهم حتى إذا لم يجد الناس عالماً اتخذوا رؤوساً جهالاً فسألوهم فأفتوهم بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا.

- لا بد من الاحتساب مِنْ قِبَل العلماء الراسخين على مَنْ يدّعون العلم وينتسبون إليه من غير أهله، وتبيين حالهم للناس، وعدم ترك المجال لهم ليقودوا الأمة ويتصدّرونها، ومن غِشِّ الأمة ترك الاحتساب على أولئك المتعالمين يقول ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية: وكان شيخنا رضي الله عنه شديد الإنكار على هؤلاء، فسمعته يقول: قال لي بعض هؤلاء: أجُعلتَ محتسباً على الفتوى؟! فقلت له: أيكون على الخبازين والطبَّاخين محتسب ولا يكون على الفتوى محتسب؟!، فانظر إلى فقه هذا الإمام الرباني ولابدَّ أيضاً من التصدي لمن يسعى إلى

زعزعة ثقة الأمة فى علمائها بوسائل شتى، لاسيما ممن يسيطرون على كثير من وسائل الإعلام على اختلافها، فالحرب الشرسة التي يقودها هؤلاء على أهل العلم ومحاولة التهوين من شأنهم والحط من قدرهم، لا بد وأن تواجه وأن تقاوم من أهل العلم بل من الأمة أجمع بما يتناسب مع هذه الحملات والتشويه.

وتأمل حال شيخ الإسلام ابن تيمية تلمس أثره ظاهراً في التأصيل للمسائل العلمية والعملية، الدقيقة والجلية، وكذلك في تبني مشروعات عملية؛ منها التعبدي الخاص به، ومنها ما يتعلق بإنزال التأصيل العلمي الذي يقرره إلى أرض الواقع، فتراه مثلاً يقرر مسائل الاعتقاد ثم يدعو إليها ويناظر عليها، وتراه كذلك يؤصل للسياسة الشرعية، ثم لا يألُ جهداً في مناصحة الأمراء والولاة والقضاة، وأكثر من ذلك تراه يتولى زمام الدعوة إلى شن الحروب على العدو المتغلب، وينخرط في برامج تدريبية تؤهل الناس إلى ذلك، ثم يحرض الناس على اختلاف طبقاتهم للمشاركة في وقعة شقحب، بل يقود الجيوش والمعارك، ثم يوجه الدولة نحو خطر أهل النفاق المظاهرين للعدو من رافضة جبل كسروان، مع جهوده وطلابه في إنكار المنكرات.